مجلة الدراسات المستقبلية
Journal of Future Studies
http: jfs@sustech.edu

الترجمة بين ارهاصات المثاقفة ورهانات العولمة: قراءة في الشأن المستقبلي

مجدي فارح*

"المترجمون خيول بريد التنوير"
" ألكسندربوشكين"

جاء في التوراة أنّه بعد الطوفان توجه من تبقى من البشر شرقا واستقروا بمنطقة ما، هي غالبا العراق، وأقاموا مدينتهم هناك وكانوا يتكلمون لغة واحدة. وقد أتاح لهم تفاهمهم وتجانسهم بأن يقرروا تشييد برج بسبع طوابق تلامس أعلاها السماء، وعلينا أن نتذكر أنّ بابل تعني في التفسير العلمي بوابة السماء. وحسب وصف سفر التكوين فإنّه بعد أن أشرف البناء على الاكتمال نزل الله المتمكن بالقوة، والجبروت لينظر ما صنعوا. فخشي أن يزداد نفوذهم وألقى عليهم اللعنة المعروفة بلعنة بابل فتوقف البناء وتفرق البشر في الأرض[1]. ولكن ماذا لو اكتمل بناء البرج واستمر الناس يتكلمون لغة واحدة ويحملون ثقافة واحدة؟ ألا يمكن اعتبار تلك اللعنة مباركة في واقع الأمر فقد سمح اختلاف اللغات بوجود الآخر؟

لو حدث ذلك لأصبحنا نتحدث عن مجتمع شمولي يتكلم لغة واحدة ويحمل قيما واحدة، يبدو أنّ لعنة بابل هي التي سمحت بوجود الآخر المختلف الذي يتكلم لغة أخرى ويحمل قيما مختلفة. ويبدو أن الاختزالات التي تفرضها العولمة اليوم من شأنها أن تأسس لمجتمع شمولي من جديد. فهل عادت لعنة بابل من جديد؟

وأي دور للترجمة في عصر العولمة؟ هل ما زالت الترجمة تساهم في تكريس لغة المثاقفة ولغة الحوار بين الثقافات والحضارات المتنوعة، أم أنّ دورها في الوقت الراهن سلبي في ظلّ العولمة الكاسحة التي تلغي الخصوصية اللغوية والهوية الثقافية والشخصية الحضارية للأمم، وتدحض فكرة التوازن لصالح الهيمنة والاختراق وتكريس الثقافة الواحدة ؟ كيف يمكن للثقافات المختلفة أن تضمن لنفسها عبر الترجمة عوامل الاثراء والتطور دون أن تكون عرضة للتهميش؟

---

* أستاذ تاريخ الأفكار بجامعة تونس.

1. الأزهر ريحاني، لعنة بابل، مباركة بابل "مجلة أيس، العدد 2، الجزائر، ديسمبر 2008م" ص ص 7و8.

لا بدّ من الاشارة إلى أنّ الترجمة قديمة قدم المجتمع البشري وتعدّد أممه ولغاته، ولم يكن اختلاف الألسنة في عصر من عصور التاريخ حاجزا يحول دون انتقال مظاهر الحضارة من مكان إلى آخر، لأنّ الإنسان كان منذ أزمنة موغلة في التاريخ تواقا إلى المثاقفة والتواصل مع غيره، متشوقا إلى آفاق أرحب من المعرفة، وكانت الترجمة دائما هي أبرز وسيط يرضي نهمه العلمي ويشبع فضوله المعرفي. لذلك فقد مارستها مختلف الحضارات الإنسانية، وأفسحت لها مجالا واسعا في حركتها الحضارية، وكانت إحدى الوسائل التي استندت إليها في صياغة منظومتها المعرفية، وتطوير ثقافتها الذاتية، وإليها يرجع الفضل في مدّ جسور الحوار والمثاقفة بين الشعوب، وفتح مجالات التفاعل بين الثقافات المختلفة، فكانت بذلك القناة الفعّالة التي تدفقت منها المعارف الإنسانية لتنتقل بين بني البشر وتتراكم، فيستفيد اللاحق من السابق(1).

وهكذا كان للترجمة دور كبير في اثراء الثقافات وحوار الحضارات ولا أحد يستطيع أن ينكر الدور الذي كانت قد اضطلعت به تاريخيا في حقب مختلفة من مسار الحضارات الانسانية. فقد لعبت الترجمة عبر التاريخ دورا بالغ الأهمية في نقل المعارف والثقافات بين الشعوب، فكان اليونان يرسلون الطلاب إلى مصر القديمة للتعلم ونقل المعارف في الفلك والحساب والزراعة إلى الاغريقية، ثم جاء الرومان لينقلوا عن الاغريقية آدابها وفلسفتها، وكان العرب ينقلون عن اللاتينية والاغريقية، ويعد تأسيس "بيت الحكمة" سنة 832م من قبل الخليفة العباسي المأمون إعلانا عن مشروع فكري وحضاري خلق جسورا قوية للتواصل والتفاعل الثقافي عبر الترجمة، حيث تم الانفتاح على الثقافة اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها(2). أما العصر الوسيط فقد تميّز بنقل الأمم الأوروبية للمعارف والعلوم عن العرب وهكذا ترجمت كتب ابن سينا وابن رشد وابن الهيثم والكندي والرازي وغيرهم من علماء الفلك والجغرافيا والتاريخ. ثم تنقلب الأوضاع فيضطر العرب، بعد أن وجدوا أنفسهم متخلفين عن الركب الحضاري بعد عصر انحطاط طويل، إلى النقل عن أوروبا(3).

---

1. محمّد يوسف نجم، العوامل الفعالة في تكوين الفكر العربي الحديث: الفكر العربي في مائة سنة "بحوث مؤتمر هيئة الدراسات العربية المنعقد في تشرين الثاني 1966م، الجامعة الأمريكية ببيروت، منشورات العيد المئوي 1967م" ص.ص 54-61.
2. مجدي فارح، تطويع اللغة والاصطلاح لخدمة النهضة والإصلاح: دراسة في تجربة الترجمة عند الطهطاوي "مجلة المشكاة، جامعة الزيتونة، العدد الثاني، تونس، 2009م" ص144.
3. عبد الكريم ناصيف، الترجمة : أهميتها ودورها في تطوير الأجناس الأدبية "مجلة الوحدة، السنة السادسة، العدد السادس أكتوبر و نوفمبر "مزدوج"، الرباط، المجلس القومي للثقافة العربية، 1989م" ص 57.

مجلة الدراسات المستقبلية
Journal of Future Studies
http: jfs@sustech.edu
عمادة البحث العلمي
DEANSHIP OF SCIENTIFIC RESEARCH

وهكذا كانت الترجمة في مختلف المحطات التاريخية الرابط الذي يكوّن نسيج الحضارة البشرية وعامل اثراء ثقافي وحراك حضاري ايجابي. ومن ثمّة عدّت الترجمة رديفة المثاقفة "Acculturation"، لأنّ كلتاهما بحث وسعي نحو ارتياد آفاق مغايرة لأشكال الثقافات المختلفة وأسئلة الوجود المتعددة في ظلّ التعايش الحضاري والتنوع الثقافي.

فكيف تغدو الترجمة وسيلة لإحلال الحوار بين الثقافات؟ وبأي معنى تضطلع بدورها كاملا لخلق مثاقفة متوازنة تنبني على الاغتناء المتبادل لا على الإلغاء والتفاضل؟ وكيف تصير الترجمة، في سعيها إلى مدّ الجسور الواصلة بين الثقافات، الجواب الثقافي على تحديات العولمة وهي تروّج لأسطورة الثقافة العالمية الواحدة؟

في ضوء هذه الأسئلة وغيرها، ستحاول هذه المداخلة ملامسة بعض الجوانب التي تثيرها الترجمة في علاقتها بالمثاقفة والعولمة. وقبل ذلك جدير بنا الانطلاق من مقاربة مفاهيمية لتحديد مدلولات الترجمة والثقافة والعولمة والمثاقفة.

- مقاربة مفاهيمية:

أ.الترجمة:

إنّ كل تفكير في الترجمة هو تفكير إشكالي، لأنّ الترجمة فعل معرفي وفكري إبداعي وثقافي ولساني مركب ومعقد وضرورة حضارية، وموقف إيديولوجي[1]. لقد ذكرت المعاجم العربية القديمة فعل ترجم بمعنى فسّر وأبان و أوضح، جاء في صحّاح اللغة : "يقال قد ترجم كلامه إذا فسّره بلسان آخر"، كما ذكرت أيضا الترجمان وهو الذي يقوم بفعل الترجمة. وجاء في المعجم الوسيط : "ترجم الكلام : بيّنه ووضّحه، وترجم كلام غيره وعنه : نقله من لغة إلى أخرى ...والترجمان أو المترجم، جمعه تراجم و تراجمة "[2]. وبذلك يكون المعنى اللغوي لفعل ترجم هو الإبانة والإيضاح والتفسير والنقل من لغة إلى أخرى . أما المعنى الاصطلاحي فهو لا يختلف عنه إذ يؤدي المعنى نفسه، وإن كان محصورا بشكل خاص في تلك العملية الفنية والعلمية التي تُعْنَى بنقل النصوص من لغة إلى أخرى، أي من سياق فكري وثقافي إلى سياق آخر مختلف عنه.

لقد أدرك الإنسان منذ وقت مبكر أنّ الترجمة تغني العقل، وتحرّره من أفقه المحدود، كما أنّها توسع مجال التفكير، وتتيح للعمل المترجم آفاقا أوسع ليحتك بعقول أخرى، وتختبره ذهنيات جديدة تضيف إليه ما يثريه وينقحه،

1. محّمد حافظ دياب، الترجمة وأسئلة النهضة العربية "مجلة الوحدة، السنة السادسة، العدد السادس أكتوبر و نوفمبر "مزدوج"، الرباط، المجلس القومي للثقافة العربية، 1989م" ص 36.
2. عبود عبدة، الترجمة والحاجات الحضارية "مجلة الموقف الأدبي، عدد 85، سبتمبر 1989م" ص122.

مجلة الدراسات المستقبلية
Journal of Future Studies
http: jfs@sustech.edu

وتنقله من نطاقه الإقليمي الضيق إلى مجال أرحب يصبح فيه النصّ المترجم تراثا للإنسانية جمعاء. وهكذا شكّلت الترجمة على الدوام باعتبارها جسرا للتواصل والتفاعل والتلاقح بين اللغات رحلة في الثقافات والحضارات المغايرة، وسعيا نحو ارتياد آفاق جديدة وأسئلة وجود وهويات متنوعة.

وإذا تصفحنا تاريخ الحضارات القديمة تصفحا سريعا اكتشفنا أنّها ما ازدهرت وتألقت إلا حين امتدّت أنظارها إلى ما وراء حدودها تبحث عن الآخر المختلف لتحدث بينه و بين مكتسباتها الحضارية عملية إخصاب تدفع بها إلى الأمام، وتثري منظومتها المعرفية، ونظامها الاجتماعي، وعلى الرغم مما كانت تفرضه ظروف المواصلات، وصعوبة الاتصال وبعد المسافات من جهود مضنية، ووقت طويل إلا أن ذلك لم يمنع الحواضر القديمة من طلب العلم والمعرفة، والوقوف على الكسب البشري ثم العكوف على نقله وترجمته، فيشيع و يثري الرصيد الإنساني الذي لا يفتأ يتراكم ويتسع نطاقه، ويسير بالبشرية خطوات نحو الأمام[1].

كما أنّ الترجمة ليست نقلا من لغة إلى أخرى وحسب، فالنقل هذا بذاته وجهها السطحي، بل أيضا نقل النص المترجم من بيئة إلى غيرها، من رؤية للعالم إلى رؤية قد تختلف جذريا عن الأولى ومن ثمّة اقترنت الترجمة منذ نشأتها بفعل المثاقفة وبسياقاتها المخصوصة[2].

ب. الثقافة والمثاقفة:

إذا أردنا أن نلّم بمعنى المثاقفة، لا بدّ لنا من أن نلّم بمعنى الثقافة، فهما تنتميان إلى مجال واحد، ولا يمكن فهم احداهما دون الأخرى.

إن مفهوم الثقافة إطارٌ عام جامع وتتحرك داخله كل الثقافات الإنسانية في دوائر أو أُطُر متمايزة ذات تنوعات شاسعة ومستويات حضارية متباينة وتقوم بينها أحياناً حواجز وعوائق يصعب تجاوزها أو اختراقها أو النفاذ منها. إنّ الثقافات تتنوع تنوعاً شديداً فبعضها ذو أطر أو دوائر مغلقة لا تتفاعل مع الدوائر أو الأُطُر الأخرى وبعضها فضاءات مفتوحة تأخذ وتعطي إنها تتغذى من الثقافات وتغذيها. ولذلك فمن نافل القول التأكيد أنّ الثقافات عوالم متمايزة تشكَّلت بظروف تاريخية وسياسية واجتماعية وطبيعية مختلفة. وقد بلّور رائد علم الانثروبولوجيا ادوارد تايلور "Edward Taylor" مفهوم الثقافة بهذه الصيغة المعرفية المحورية الشاملة في كتابه الثقافة البدائية الذي

---

1. أنطوان مقدسي، الترجمة والثقافة: عناصر من أجل سياسة ثقافية "مجلة الموقف الأدبي، عدد خاص بالترجمة الأدبية، العدد 202 و203، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 1988م" ص20.
2. المرجع السابق، ص20.

مجلة الدراسات المستقبلية
Journal of Future Studies
http: jfs@sustech.edu

يعرِّف فيه الثقافة بأنّها: "ذلك الكل المركّب المعقّد الذي يشمل المعتقدات والمعلومات والفن والأخلاق والعرف والتقاليد والعادات وجميع القدرات الأخرى التي يستطيع الإنسان أن يكتسبها بوصفه عضواً في مجتمع"[1]. وهذا التعريف يؤكد كَلّيَّة المفهوم وتعقيده واتساع مدلولاته وتنوع عناصره، كما يؤكد أنّ الثقافة أكبر من الأفراد وأنّها نتاج الاجتماع الإنساني وأنّ الإنسان يكتسبها ويتطبّع بها دون اختياره فهي تسيِّره وتحدِّد ماهيته وترسم نمط تفكيره وتبني نماذج سلوكه وتصنع مسارات اهتماماته وترتِّب منظومة قيمه. أما العالم الأنثروبولوجي رالف لنتون فيعرِّف الثقافة في كتاب الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث قائلا : "يُعد مفهوم الثقافة من أهم الأدوات التي يتعامل بها الباحث الانثروبولوجي، إنّ الثقافة مصطلحٌ ملائم لتعيين المجموعة المنظمة من العادات والأفكار والمواقف التي يشترك فيها أعضاء أي مجتمع ولذا يكاد يكون من المتعذّر على أي عالم أنثروبولوجي أن يبحث هذه الأمور دون استعمال هذا المصطلح"[2]. ويذهب ملفيل ج. هرسكوفتز الذي يورد تعريف تايلور إلى القول بأنّ: " تعاريف الثقافة كثيرة، ولكن هناك اتفاقا عاما على أنّها تكتسب بالتعلم وتتيح للانسان أن يتلاءم مع بيئته الطبيعية والاجتماعية، وأنّها بالغة التنوع، وتتجلى في نظم وأنماط تفكير وأشياء مادية"[3].

أما مُحَّد عابد الجابري فيعرف الثقافة بقوله: "إنّها ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات والتطلعات التي تحتفظ لجماعة بشرية بهويتها الحضارية، في إطار ما تعرفه من تطور بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء، وبعبارة أخرى إن الثقافة هي المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمّة من الأمم عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان ومهامه وقدراته وحدوده وما ينبغي أن يعمل وما لا ينبغي أن يأمل"[4].

---

1. ادوارد تايلور، الثقافة البدائية، ص1 ، نقلا عن أحمد أبو زيد، تايلور "القاهرة، دار المعارف، دون تاريخ" ص195.
2. رالف لنتون، الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، ترجمة عبد الملك الناشف،بيروت، المكتبة العصرية، 1967م" ص211.
3. ملقيل ج. هرسكوفيتز، أسس الانثروبولوجيا الثقافية "دمشق، وزارة الثقافة، 1974م" ص5.
4. مُحَّد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية...عشر أطروحات "مجلة المستقبل العربي، عدد 228، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1998م" ص14.

مجلة الدراسات المستقبلية
Journal of Future Studies
http: jfs@sustech.edu

إذا تأملنا هذه التعاريف سيبدو لنا بوضوح أنّه ليست هناك " ثقافة نموذجية واحدة وليس من المحتمل أن توجد في يوم من الأيام، وإنما وجدت وتوجد وستوجد ثقافات متعددة متنوعة تعمل كل منها بصورة تلقائية أو بتدخل إرادي من أهلها قصد الحفاظ على كيانها ومقوماتها الخاصة"[1].

أما إذا أردنا أن نقف على تعريفات للثقافة لها علاقة بأبعاد ومتغيرات العولمة وبجدل الخصوصية المحلية والعالمية الكونية، فإن الكتب المتوفرة والمتداولة لا تسعف إلا بالقليل النادر من هذا النوع من التعريفات لكنها على كل حال، أو بعض منها على الأصح، ينطوي على أبعاد ودلالات عميقة في التعريف من حيث التحقق بشرط الذاتية أو بشرط العالمية أو بكليهما مع إبراز الإيجابي والسلبي في كل انتماء.

من هذه التعريفات نذكر ما ذهب إليه مالك بن نبي من كون الثقافة " أسلوب الحياة في مجتمع معين... تخصّ السلوك الجماعي الذي يطبع تصرفات الفرد في ذلك المجتمع، بل هي حياة المجتمع التي بدونها يصبح مجتمعا ميتا، فداخل مجتمع متحرك تتمّ عملية تركيب ثقافته بصورة تلقائية تنحصر في تنظيم المقومات الثقافية في وحدة متجانسة تمثل ثقافته. ثم إنّ الفرد المنعزل لا يمكن أن يستقبل الثقافة ولا أن يرسل إشعاعها ولا يمكن أن تتحوّل الأفكار والأشياء إلى عناصر ثقافية إلا إذا تألفت أجزاؤها فأصبحت تركيبا فليس للشيء المنعزل أو الفكرة المنعزلة معنى أبدا"[2]. تبعا لذلك فإنّ الثقافة، حسب ابن نبي، هي " نظرية في السلوك أكثر مما هي نظرية في المعرفة" وبهذا تكون الثقافة أعمّ من التعليم نفسه وأعمّ من المعرفة والأفكار وأوثق صلّة بالشخص"[3]. ولذلك فلا يمكن للثقافة أن تعيش في فضاءات مغلقة ولأنّها قراءات متعددة في كتاب مفتوح موضوعه الانسان وما حوله، فإنّه من الصعب أن تحيا ضمن نظام لغوي ورمزي معزول عن رياح العالم وتغيراته الفكرية والعلمية والأدبية. فالثقافة هي الشكل الاسمي لتراكم المعارف، وهذه الأخيرة يصعب تنظيمها وتوحيدها في نسق علمي ما دون مواكبة مستمرة لما يحدث من تطورات وتغييرات في مستوى البنية المعرفية للشعوب والحضارات الأخرى[4].

---

1. المرجع السابق، ص15.
2. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين "دمشق، دار الفكر ،1986م" ص13.
3. المرجع السابق، ص ص73 - 74.
4. عبد الوهاب حفيظ، حول الترجمة والتعريب والتغريب: مأساة المصطلح وفراغ المعنى "مجلة الوحدة، السنة السادسة، العدد السادس أكتوبر و نوفمبر "مزدوج"، الرباط، المجلس القومي للثقافة العربية، 1989م" ص 74.

أما المثاقفة فهي مصطلح حديث، يوحي تركيبه اللغوي بمعاني التلاقي والاحتكاك، والتمازج والتفاعل والتبادل والتلاقح والاتصال المثمر، ولكنّه يعبر عن معنى قديم جدا واكب الإنسان منذ أزمنة سحيقة، وكان تعبيرا عن ميل عميق في ذاته نحو التواصل مع الآخرين لمعرفة ما لديهم، والاطلاع على أنماط تفكيرهم وأساليب حياتهم. وعليه فالمثاقفة لا تعدو أن تكون تعبيرا عن عمليات التغيير أو التطور الثقافي التي تطرأ حين تدخل جماعات من الناس أو شعوب بأكملها تنتمي إلى ثقافتين مختلفتين أو أكثر في اتصال وتفاعل يترتب عليهما حدوث تغيرات في الأنماط الثقافية الأصلية السائدة في الجماعات كلها أو بعضها. لقد استعمل مصطلح المثاقفة أو التثاقف "Acculturation" في أدبيات الأنثروبولوجيين للدلالة على التداخل الحاصل بين مختلف الحضارات على مستوى التأثير والتأثر والاستيعاب والتمثل والتعديل و"التبادل الثقافي" أو العبور الثقافي "Transculturation". أما الباحث الاجتماعي الفرنسي ميشال دوكستر "Michel de Coster" فقد حدّد التثاقف باعتباره "مجموع التفاعلات التي تحدث نتيجة شكل من أشكال الاتصال بين الثقافات المختلفة كالتأثير والتأثر والحوار والرفض والتمثل"[(1)].

وهكذا يكون التثاقف عمليّة تتمّ في الحركة بين الانفتاح على الآخر وبين العودة إلى الذات. وهي حركة ثقافيّة طبيعيّة تقود إلى السموّ بكلّ ما هو إنسانيّ عامّ وطرح كلّ ما هو محلّي أو ظرفيّ في الثقافات. ولذلك فمن الطبيعي أن تجري المثاقفة في إطار من الحرية و المبادرة الذاتية التي تعبر عن رغبة تلك الشعوب في التقارب والحوار والتثاقف، وإلا تحوّلت إلى استلاب فكري وغزو ثقافي مفروض يتضمن في طياته الرغبة في محو الآخر وإلحاقه وفرض التبعية عليه، ومعاملته بنظرة فوقية متغطرسة . وتأتي أهمية المثاقفة من منطلق أنّها تشكّل ظاهرة صحية إيجابية عرفتها المجتمعات البشرية عبر تاريخها الطويل، وظلت وسيلة فعالة من وسائل التقارب والتواصل وتبادل المعارف والخبرات، وعاملا قويا من عوامل تطور وازدهار الحضارات الإنسانية[(2)].

وقد ظلّت هذه الظاهرة الإنسانية تثبت، على مرّ الأزمان، أنّه لا تستطيع أية أمة أن تنغلق على نفسها وتتقوقع داخل ذاتها وتدعي القدرة على الاستمرار، لأنّ هذا الانغلاق الحضاري سيقودها إلى الموت المحتم، فكان المفروض عليها أن تمد جسور الحوار والتبادل مع غيرها من الأمم حتى يتمّ التلاقح والإخصاب، وهذا قدر لا سبيل إلى مغالبته أو تجنبه لأنّه سنّة كونية ثابتة، وقانون طبيعي واجتماعي يحكم حياة الشعوب ويفرض عليها أن تتفاعل فيما بينها ويستفيد بعضها من بعضها الآخر لأنّ الجهل بالآخر لا يحقق اللقاء ولكنّ التدبر والانكفاء.

---

1. Michel de Coster, L'acculturation, Diogène, N° 73, Paris, 1971, p 28.
2. Ibid, p.32.

فالحديث عن مشكلة التثاقف هو في الأصل حديث عن مشكلة الغيرية التي ركز فيها ممثلو الفلسفة الحديثة والمعاصرة على مساءلة العلاقة بين الذات والغير، أي مساءلة العلاقة القائمة بين "الأنا والأنا الذي ليس أنا" كما يقول جان بول سارتر. ومشكلة التثاقف أو ما يسميه الفلاسفة بمشكلة الغيرية من المشكلات الفلسفية القديمة، بحيث نجد مفاهيم لها علاقة بمشكلة التثاقف في الموروث الفلسفي اليوناني وكذلك في الموروث الفلسفي العربي الإسلامي القديم مثل مفهوم: الذات، الآخر. أما في الفكر الحديث فإن مشكلة الغيرية كمشكلة فلسفية لم تثر إلا مع هيجل "Hegel" في مؤلفه فينومينولوجيا الروح "Phénoménologie de l'esprit" الذي تحدث فيه عن "جدلية العبد والسيد" والتي جاءت كردّ فعل على مشكلة الذات أو ما يسمى بفلسفة الوعي التي أثارها ديكارت في القرن 17 من خلال مفهوم الكوجيطو.

فالمثاقفة بهذا الاعتبار تداول وتبادل للثقافات، وتخصيب لها، وتعميم لفوائد الإبداع البشري والعبقرية الإنسانية على سائر البشر، ودفع قوي لحركة المجتمعات نحو مزيد من التقدم والرقي. وكلما كانت حركة المثاقفة قوية، كلما كانت الحضارة غنية معطاءة، وكلما تقدم الإنسان في معارج الرقي الإنساني و الحضاري تجاوز أكثر حدود لونه الخاص، تطلعا إلى مزجه بألوان أخرى. ويذهب سيرج لاتوش "Serge Latouche" إلى أنّ كلمة تثاقف تستخدم " للدلالة على تفاعل إيجابي عند الاحتكاك بين الثقافات، وعندما تدخل ثقافتان في اتصال، فإذا كانت السمات الثقافية التي يجري تبادلها تتوازن وتحافظ كل منهما على هويتها وديناميتها الخاصتين بعد إدماج واستيعاب العناصر الأجنبية، يمكن الحديث عن تثاقف ناجح. وعندما، لا يتجسد الاتصال في تبادل متوازن، بل في تدفق في اتجاه واحد، تغدو الثقافة المتلقية مغزوة ومهددة في وجودها ذاته"[(1)].

و لذلك فلابدّ من الإشارة إلى ضرورة التفريق بين المثاقفة والغزو الفكري حتى لا يحدث التباس بينهما. فكلا المصطلحين يدلّ على وجود علاقة ما بين ثقافتين أو أكثر، وهذه العلاقة التي تربط ثقافتين متباعدتين أساسا في جذورها الدينية وانتماءاتها العرقية، وواقعها الجغرافي، وتراثها الاجتماعي و الثقافي والجمالي، إما أن تتبع منحى تواصليا حواريا يتولّد منه التفاعل الحضاري والتثاقف، وإما أن تتبع منحى تصادميا يتولد منه الاستلاب الحضاري. لذلك كان الغزو الفكري هو نقيض المثاقفة، لأنّ المثاقفة تقوم على مبدأ التواصل وطلب الاغتناء بثقافة الآخر.

والخلط بين المصطلحين والعلاقتين يؤدي إلى مغالطة كبيرة. وليس أدّل على ذلك من وصف الحروب التي شنّها الاستعمار الغربي ضدّ الحضارات والثقافات التي خضعت لسيطرته بأنّها مثاقفة، حيث أوهم علماء الأنثروبولجيا

---

1. قادري أحمد حيدر، العولمة ومسألة الهوية "مجلة قضايا فكرية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2004م" ص393.

مجلة الدراسات المستقبلية
Journal of Future Studies
http: jfs@sustech.edu

الثقافية أنّ ما يجري من طمس ومسخ و تشويه وتغييب للثقافات القومية لا يعدو أن يكون عمليات مثاقفة تجسد الحوار أو التبادل الثقافي أو التثقيف، يقول الأنثروبولوجي جيرار لكلرك في مؤلفه الأنثروبولوجيا والاستعمار: " يمكن استعمال التثاقف للإشارة إلى الأنماط التي يتم بموجبها قبول مظهر ثقافي معين في ثقافة أخرى بحيث يتلاءم ويتكيف معها مما يفترض مساواة ثقافية، بين الثقافة التي تعطي وتلك التي تتقبل، والتكيف هو السيرورة التي تتحول بموجبها عناصر الثقافة المستعمرة والمسيطر عليها نحو حالة تتلاءم مع شكل الثقافة المسيطرة"[1].

وفي الحقيقة يشير فعل التثاقف هنا إلى القضاء على الثقافات المحلية من أجل نشر الثقافة الغربية خارج حدودها، وهيمنتها على غيرها، واعتبار الغرب النمط الأوحد لكل تقدم حضاري، ولا نمط سواه، وعلى كل الشعوب تقليده، والسير على منواله ، لأنّ المركزية الغربية تؤمن أنّ الغرب هو المركز الذي يحق له أن يبدع، وأنّ العالم كله يجب أن يتحوّل إلى أطراف مستهلكة خاصة في ظلّ تزايد فتوحات العولمة[2].

كيف يمكن إذن أن تتم عملية التثاقف بمنهج التعارف والتدافع والتحاور من خلال قناة الترجمة في ظلّ وضع محكوم بمنطق الاستعلاء والاستفراد والهيمنة لثقافات ضدّ أخرى في عصر العولمة؟

- **الترجمة والعولمة: مأزق الخصوصية ومحنة الهوية:**

تقدم العولمة كمصطلح قلق يرتبط ذكره بالتوجس والتحفظ، بالنظر لتعدّد حضوره في مختلف الخطابات السياسية والاقتصادية والثقافية، دون أن يكون هناك سياق جامع يتحكم في مساره ليسمح بوضعه في إطار تعريفي قارٍّ كغيره من المفاهيم. والعولمة تفيد جعل الشيء في مستوى عالمي، أي نقله من المحدود المراقب إلى اللامحدود الذي ينأى عن كل مراقبة. وبذلك تعبرّ عن السياسة الرامية إلى إلغاء القيود التي تعوق حركة السلع والأفراد والمنتجات ودمج جميع الأسواق في سوق رأسمالية واحدة مفتوحة[3]. فالعولمة هي مجموع العمليات التي تغطي الكوكب

---

1. للمزيد، أنظر: جيرار لكلرك، الأنثروبولوجيا والاستعمار، ترجمة: جورج كتورة "بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1983م".
2. Jean Pierre Warnier, La mondialisation de la culture, Paris, Ed. La Découverte, 2004, p. 125.
3. Charles Albert Michelet, Le capitalisme mondial, économie en liberté, Paris, Presses Universitaires de France, 1976, p. 17.

مجلة الدراسات المستقبلية
Journal of Future Studies
http: jfs@sustech.edu

والتي تنتشر على مستوى العالم. وتبعا لذلك هي سعي لإزالة الحدود والحواجز ما بين الدول للسماح بحرية تنقلّ الأموال والسلع والأفكار والثقافات دون قيود تفرضها السيادة الوطنية أو الخصوصيات السوسيوثقافية[1].

قد لا ينازع أحد في كون علاقة العولمة بالثقافة هي من أعقد وأخطر أشكال العلاقة بين هذا التيار الكاسح وبين باقي المجالات الأخرى، سياسية واقتصادية وغيرها. وإن بدا في الظاهر، وخصوصا في مراحل التشكل الأولى لنظام العولمة أنّ المتحكم في آليات الصراع والنزاع عوامل اقتصادية وسياسية بالدرجة الأولى، فهذا لا يقلّل من أهمية العامل الثقافي لا في الآجل ولا في العاجل وذلك لاعتبارات شتّى. إنّ الأمر هنا يتعلق بإخراج شكل ونمط ثقافي جديد وحيد ومهيمن يتحدد فيه مركز ثابت دائم وأطراف وهوامش قارّة، يقدم تفسيراته لكل الظواهر الإنسانية والكونية، وينفي ويستبعد كل تفسير مغاير. بتعبير أوضح، لا يتعلق الأمر بثقافات متعددة ذات وجود تاريخي عريق تصوغ اختيارات متعددة، بل بتدمير ذلك كله ولو على حساب القيم التاريخية والتراثية والنفسية والقومية. من هنا يذهب بعض المفكرين والباحثين إلى أنّ العولمة فعْلٌ يقلص امتداد الكون في هوية واحدة متجانسة ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا[2]. العولمة وفقا لهذا الرأي تعمل على بناء ثقافة واحدة، وتسعى إلى تذويب الحدود والحواجز الثقافية والفكرية والاقتصادية بين الأمم. إنّها سعي محموم لبناء المجتمع الإنساني على مقياس الثقافة الواحدة والحياة الاقتصادية الواحدة، وبالتالي تصبح ثقافة العولمة هي ثقافة الشركات العابرة للجنسيات والقوميات والثقافات التي تتجاوز الخصوصيات المحلية[3].

كما أنّ العولمة باعتبارها حصيلة المستجدات والتطورات التي تسعى بقصد أو من دون قصد إلى دمج سكان العالم في مجتمع عالمي واحد، تسعى إلى محاولة إلغاء خصوصيات الثقافات. هذا الأمر ولد توترا حادا بين نزعتين منتشرتين في الفكر والسياسة والاقتصاد: النزعة الأولى تتجه نحو الانفتاح والانخراط اللامشروط في العولمة وتنتصر إلى القيم الكونية أما النزعة الثانية فتصرّ على صيانة الخصوصيات الثقافية من أي اعتداء خارجي وتنهمك في المحافظة على نقاء رموزها الثقافية من أي اختلاط. ولكن أليس أليس اختزال الإنساني فيما هو كوني استخفافا بكل هوية ثقافية؟

---

1. للمزيد من التفصيل، أنظر: أسعد السمحراني، ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة "بيروت، دار النقائش للطباعة والنشر، 2003م".
2. مُحَّد المنير، العولمة وعالم بلا هوية "القاهرة، دار الكلمة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2000م" ص129.
3. المرجع السابق، ص130.

مجلة الدراسات المستقبلية
Journal of Future Studies
http: jfs@sustech.edu

يمكن أن نقسّم هذه الإشكالية إلى مجموعة من الأسئلة الفرعية: ما الفرق بين الإنسان والإنساني والإنسانية؟ وماهو مطلوب منا اليوم؟ هل نشارك في صناعة الكونية أم نعمل على المحافظة على الهوية؟ ماذا نفعل ان حصل تصادم بين المطلبين؟ هل نضحي بالكونية من أجل الهوية أم بالهوية من أجل الكونية ؟ ما السبيل إلى كونية لا تستخف بالهوية والى إنسانية لا تختزل في الكونية؟

تعرف الكونية بأنّها أمر مخالف للخصوصية وقريبة من العالمية والأممية وتدلّ على مجموعة من القيم التي يحصل حولها إجماع واتفاق من طرف كل الناس مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان، في حين أن الإنساني هو مجموع السمات التي يشترك فيها الناس كافة وفي نفس الوقت مكونة للتباين النوعي بينهم. لكن ان ارتبطت الثقافة بالنفوذ ألا تكون الامبريالية هي النتيجة المنطقية لادعاء الكونية وألا تمثل الكونية المعولمة خطرا على بقية العالم ؟

إنّ اندثار الحدود السياسية والقانونية والثقافية أمام العولمة المدعومة بوسائل حديثة كالإنترنت، والفضائيات التلفزيونية، من شأنه أن يدمر آخر قلاع المقاومة للاكتساح الثقافي الغربي والأمريكي بالأساس، ما دام السياق الجيوبوليتيكي الدولي يسير باتجاه تعزيز هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على العالم في سياق ما يعرف بالنظام الدولي الجديد، أو عالم الميغا إمبريالية بتعبير عالم الدراسات المستقبلية المهدي المنجرة[1]، فمع انحسار الاتحاد السوفييتي وتفككه وانشغاله بهمومه الداخلية، كانت الولايات المتحدة الأمريكية تحقق أكبر قدر من الانتشار العالمي والنجاحات والانتصارات السياسية والعسكرية، وتستغل التحولات الدولية لتزيد من حضورها وصعودها الدولي كدولة وحيدة تتميز بمواصفات ومقومات الدولة العظمى كلها. إذ يتعلق الأمر بأيديولوجيا تعكس إرادة الهيمنة على العالم وأمركته على حد تعبير عابد الجابري، فهي تعمل على تعميم نمط حضاري يخص بلداً بعينه هو الولايات المتحدة

1. يعتبر المهدي المنجرة أن الفرق بين الإمبريالية التقليدية والميغا إمبريالية هو أن هذه الأخيرة لا تحتاج للجغرافيا، حيث لديها وسائل جديدة مثل التكنولوجيا المتطورة للسيطرة على العالم بأسره عبر تقنيات المراقبة، وبالتالي فإن هذه الوسائل أصبحت تغني عن الوجود في عين المكان ... لقد أصبح للميغا إمبريالية أسلوب جديد ولغة من تركيب جديد، والميغا حسب مدلولها تقتضي الانفراد بالقرار. فهي لا تقبل إمبريالية أخرى منافسة على عكس ما كان في السابق. لمزيد من التفصيل، أنظر: المهدي المنجرة، الإهانة في عهد الميغا إمبريالية "الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 2004م".

الأمريكية، بالذات، على بلدان العالم أجمع ...[1]. لذلك فإنّ العولمة تنحو باتجاه القضاء على الخصوصية الثقافية بشكل عام، في الأذواق وأولويات التفكير ومواضيعه ومناهجه، لكل هذا يضع المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي مفهوم العولمة في عمق التطلعات الهيمنية للولايات المتحدة الأمريكية لتحقيق ما يتعارف عليه "بالحلم الأمريكي" في إطار تبني حرية مطلقة لقوانين السوق المالية الواحدة التي تتحدى سلطة الدولة القومية ودولة الرعاية[2].

وإذا كانت اللغات في حدّ ذاتها تمثّل وجها آخر لكل مظاهر الثقافة والهوية ورؤية العالم، فإن تقليص دورها في عملية التعايش الحضاري أو إقبارها هو بمثابة تهميش لثقافة ولهوية ولرؤية العالم، وهو ما ترتب عنه تقليص لدور الترجمة، باعتبارها رديفة التعددية، والتنوع، التعددية بأوجهها المختلفة: التعدد الثقافي، تعدّد اللغات، تعدّد المعاني والدلالات، تعدّد التأويلات والقراءات، تعدّد الترجمات. وعليه فإنّ الترجمة باعتبارها الوجه الآخر للمثاقفة نجدها على طرفي نقيض مع منطق العولمة الرامي إلى تأليف ثقافة ذات بعد واحد[3].

تأسيساً على ما سبق، يتبين أنّه إذا كانت الترجمة ولقرون طويلة، قد دشّنت سلسلة من الحوارات الحضارية عبر آلية المثاقفة، فإنّ دورها في الوقت الراهن بدأ يتقلص تدريجيا مع تقلّص نفوذ وحضور لغات وثقافات متعددة في المشهد العالمي بفعل موجة العولمة التي تصادر حقّ التعايش وحق الاختلاف والتنوع بمعنى أنّ الترجمة وهي تطمح إلى خلق مثاقفة تسعى إلى أن تحقق التعددية، هذا في الوقت الذي تحاول فيه العولمة تقليص هذه التعددية وإرجاعها إلى الوحدة، أو اختزال التعدد داخل الوحدة. وإذا كانت الترجمة في ظل المثاقفة تمثل إضافة، فإنّها في حضن العولمة تنحو لأن تصير استيلابا، لذلك، فإنّ تحقيق التفاعل الثقافي بين الحضارات المختلفة والمتنوعة لإغناء الثقافة العالمية لن يتمّ إلا بقبول التكافؤ الثقافي، لأنّ ذلك كفيل بالنهوض بالترجمة لأن تلعب الدور المنوط بها في ضوء الاعتراف بالتنوع الثقافي الذي تحاول العولمة أن تحوّله إلى ثقافة عالمية موحدة[4].

---

1. سيد أبو ضيف أحمد، الهيمنة الأمريكية: نموذج القطب الواحد وسيناريوهات النظام الدولي الجديد "مجلة عالم الفكر، العدد 3، المجلد 31، الكويت 2003م"
2. زبيغنيو بريجنكسي، بين عصرين: أمريكا والعصر الالكتروني، ترجمة محجوب عمر "بيروت، 1980م".
3. رشيد برهون، الترجمة ورهانات العولمة والمثاقفة "مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 31، سبتمبر 2002م" ص 173.
4. المرجع السابق، ص174.

مجلة الدراسات المستقبلية
Journal of Future Studies
http: jfs@sustech.edu

والترجمة في ظلّ هذا الوضع تسخر لضمان توجه تشكيل الهوية نحو التعامل مع هذا المنطق، فالطرف المهيمن يستخدم الترجمة من باب الإدماج والاستيعاب، والطرف المغلوب يستخدمها من باب الحفاظ على الوجود. ولذلك لا يستقيم بحال أن تكون استراتيجية الطرفين متماثلة في استخدام الآلية الترجمية. هل في وسع الطرف المغلوب باعتباره الأنا أن يبتكر أو يفعّل الآلية الأنسب لمواجهة الظرف وبالتالي يبطل عمل استراتيجية الهيمنة وآليتها الترجمية؟ وماهي مقتضيات التثاقف في ضوء جدل المحلي والكوني؟

- التَرجمة والمثاقفة: من الكونية إلى الخصوصية:

تجدر الإشارة إلى أنّ الترجمة باعتبارها جسرا للتواصل بين اللغات المتعددة والثقافات المختلفة والحضارات المتمايزة من الآليات التي اعتمدتها المجتمعات منذ بداية تشكّلها في التعريف بآدابها وفلسفتها وتقاليدها وثقافتها. لذلك عدّت الترجمة من أهمّ الوسائل المستغلة قديما وحديثا في خلق التلاقح الحضاري بين الأمم والشعوب من خلال منطق الأخذ والعطاء والاقتباس والإبداع، لكلّ المظاهر الفكرية والمعرفية والثقافية التي تعكس بلا شك تصورات مختلفة ورؤى متباينة للعالم عند الناطقين بها أو الممارسين لها.

وكنتيجة حتمية لهذا التواصل الكوني، أصبح التفاعل بين الثقافات القومية والحضارات المختلفة يعتمد على الترجمة ليس باعتبارها ترفا فكريا بل ضرورة إنسانية أملتها شروط الاختلاف والتعدد القائمة بين الأمم. وعليه، فإن وجودها وديمومتها مقرونة بهذا التعدد على مستوى اللغات والثقافات والحضارات. فهي لا تهدف إلى أن تطابق الأصل وأن تحاكيه وتماثله، بل أن تكرّس ثقافة الاختلاف وأن تصبح استراتيجية لتوليد الفوارق. ولأنّ الثقافة بمعناها الإثنوغرافي الواسع هي "ذلك الكلّ المركب الذي يشمل المعرفة، والعقائد، والفن، والأخلاق، والقانون، والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع"[(1)]، فإنّ الكثير من مكونات هذه "الثقافة" يتعذر انخراطه في نسق تفاعلي بين ثقافتين مختلفتين، بحكم اختلاف " لغة الانطلاق" التي ينتج من خلالها

---

1. تيسير شيخ الأرض، الترجمة بين الفعل والانفعال الثقافي "مجلة الوحدة، مرجع سابق"ص11؛ وقد جاء في (المعجم الفلسفي المختصر) ترجمة توفيق سلوم، تعريف مشابه لتعريف (تايلور) مع التركيز على أشكال: الفلسفة، العلم، الأخلاق، الحق، والفن "دار التقدم، موسكو، بدون تاريخ" ص155.

مجلة الدراسات المستقبلية
Journal of Future Studies
http: jfs@sustech.edu

"الفن" و"العادات"، مما يتطلب "وسيطا" يساهم في خلق جسور التفاعل والتقارب بين الثقافات، بناء على حتمية المثاقفة.

ولعل خير و"سيط" لتدعيم آلية التقارب الثقافي هو المترجم، فتغدو الترجمة أداة فعالة لتجسير الهوة بين الثقافات، وعنصرا معرفيا هاما يساهم في تنمية الفكر والمعرفة. فما هي علاقة الترجمة بالمثاقفة؟ وما هي الصورة التي تبدو بها المثاقفة من خلال فعل الترجمة؟ وما الإشكالات التي تطرحها الترجمة في ظل المثاقفة، خاصة في ما يعلق بسؤال الهوية والاختلاف الثقافي؟

يتطلب الحديث عن دور الترجمة في تحقيق المثاقفة الإيمان بأنّ الترجمة "مجال لتحقيق الهوية المنفتحة على الآخر، ولكن من منطلق الخصوصية القائمة على التثاقف المتوازن[1]. وترتبط الترجمة بالمثاقفة من زاوية تواصلية، حيث تتخذ الترجمة شكل أداة للتواصل الثقافي، سواء بين ثقافتين متزامنتين أم غير متزامنتين. وترتبط المثقافة بالترجمة من زاوية معرفية، فتغدو الترجمة فعلا معرفيا يساهم في إغناء الثقافات بناء على جدلية الأخذ والعطاء. كما ترتبط المثاقفة بالترجمة كذلك من زاوية رمزية، خاصة ما تعلق بإشكالية "الهوية"، حيث ترقى الترجمة إلى تدعيم التفاعل الثقافي عبر التعريف بالخصوصيات المميزة لثقافة ما، وذلك بجعل الترجمة أداة قادرة على استيعاب نصوص ثقافية في نسيجها الثقافي الرمزي وتحويلها إلى فعل ثقافي خاص بها.

من هنا، تبدو العلاقة بين المثاقفة والترجمة متجهة صوب تشييد رؤية معرفية غايتها تقويض كل تصور سلبي يجعل المثاقفة فعلا ينبني على الإلغاء والتفاضل. لهذا فكل ترجمة، هي تدعيم للمثاقفة، على اعتبار أنّ النصّ المترجم قادر على تحقيق الاعتراف الثقافي بالآخر، وبواقعه، ونمط تفكيره، وبيئته على اختلافها"[2]. وبالتالي فالمثاقفة، عبر آلية الترجمة، تكرّس التفاعل القيمي الإنساني، وتضيّق هوّة الاختلافات بين الشعوب.

ولذلك فإنّ الحاجة للترجمة هي حاجة إلى ابقاء التنوع والتمايز الثقافي واللغوي بكل ما يعنيه من مضادة للكونية وللكسموبوليتية. كما أنّ الحضارات كانت دائما تغتني بفضل الاتصال والتبادل مع حضارات أخرى، ومن ثم كانت دائما منخرطة في عملية دينامية قوامها التغيير وإعادة تحديد "الذات". والحضارات بطبيعتها "جامعة بين

1. رشيد برهون، مرجع سبق ذكره، ص171.
2. تيسير شيخ الأرض، مرجع سبق ذكره، ص13.

مجلة الدراسات المستقبلية
Journal of Future Studies
http: jfs@sustech.edu

الثقافات". فالحوار الثقافي المنكفئ على الذات، أو الأصولية الثقافية، التي تحنط "الآخر" باعتباره غريبا، وهو بذلك عدو محتمل، تتعارض مع هذه السمة المكونة للحضارة البشرية.

من المعلوم أنّ انخراط الترجمة في تفعيل الحوار الثقافي/ المثاقفة ليس وليد التاريخ المعاصر، بل هو فعل واكب سيرورات الأمم والحضارات منذ عصور قديمة؛ وإن كان يتخذ مفاهيم مخالفة من قبيل: الأخذ، التأثر، المحاكاة...، ويعد مفهوم "المقابسة" الذي نحته أبو حيان التوحيدي أبلغ تعبير عن التفاعل الثقافي[1]. من هذا المنطلق، تتحول الترجمة إلى وسيط ثقافي بين ثقافتين مختلفتين، هدفه تطوير وإغناء المرجعية الثقافية "للغة الوصول"، دونما فقدان "لأصالة" الذات المترجم لها. لهذا، تساهم الترجمة في تفعيل المثاقفة من زاوية التواصل والحوار الفكري، لأنّ الترجمة "هي الأداة التي يمكننا بها مواكبة الحركة الفكرية والثقافية في العالم"[2]. مما يجعلها – أي الترجمة – قناة أساسية في تبلور فعل المثاقفة"[3].

تنبني إذاً، المثاقفة على عناصر محورية هي الاتصال، والتفاعل، والتغيير في الأنماط الثقافية، والمواكبة الثقافية، وتجسير الهوّة بين ثقافتين مختلفتين. والمتأمل في هذه العناصر البانية للمثاقفة بإمكانه أن يجدها هي المتحكمة أيضا في فعل الترجمة. لهذا، فالترجمة تساهم في تنمية المثاقفة عبر عدة قنوات تقنية وإبستمولوجية. هكذا تبدو الترجمة ومع كل مثاقفة أو تلاقح ثقافي وحضاري إضافة وليس استيلابا، إضافة لأن الحضارات التي كان لها حضورا فعليا في إثراء التراث الإنساني لم تغتن من تلقاء ذاتها، بل من قدرتها على استيعاب عناصر ثقافية أجنبية وإدماجها في تركيبتها، وتحويلها إلى فعل ثقافي مغاير، دون أن تتنازل عن مبادئها الثابتة.

وتكتسي الترجمة بعدا رمزيا، لأنّها تتجاوز التفاعل المتبادل إلى الحرص على عدم فقدان "الأصالة" و"الهوية"، ناهيك عن تطوير "الذات" عبر الاغتناء بثقافة "الآخر" وتجاربه، بالرغم من "الاختلافات" البينة بينهما. وهنا تتوازى الترجمة مع المثاقفة التي "تعد رافدا مهما تسعى كل أمة من خلاله إلى معرفة الآخر واستثمار ما لديه من قيم ومعطيات إنسانية وحضارية، وإلى تنمية كيانها الثقافي بشكل خلاق وغير مضر بمقومات الهوية"[4].

---

1. مسعود ظاهر، الاتجاهات الأساسية لحركة الترجمة في لبنان والوطن العربي "مجلة الوحدة، العدد 61و62، أكتوبر ونوفمبر "عدد مزدوج" 1989م" ص47.
2. عبد الكريم ناصف، مرجع سبق ذكره، ص59.
3. مسعود عمشوش، المثاقفة: أبرز آليات حوار الحضارات، عن الموقع الإلكتروني : www.yemenitta.com/maqal 8.htm.
4. للمزيد، أنظر: نفس المرجع السابق.

مجلة الدراسات المستقبلية
Journal of Future Studies
http: jfs@sustech.edu

كما تعتبر الترجمة عنصرا معرفيا ينشط التفاعل الثقافي مع "الآخر"، لكن دونما رغبة في "التمركز على الذات"، بتعبير أنطوان بيرمان، حيث "يعمد المترجم إلى رد كل شيء إلى ثقافته ومعاييره وقيمه، معتبرا أن كل ما يقع خارجها، أي كل ما هو أجنبي، هو عنصر سلبي لا يصلح، في أحسن الأحوال، إلا لأن يدمج ويكيف لإغناء الثقافة المتلقية"(1). لذلك يجب على الترجمة أن تجنح إلى تدعيم التواصل الأخلاقي مع "الآخر" مع ثقافته، مما يساهم في تجاوز التعصب ونزعة التمركز ناهيك عن تكريس الانفتاح على الآخر واحترام ثقافته، ولما لا إخراجها من عزلتها. إن هذا يتماشى مع مفهوم المثاقفة التي ينظر إليها باعتبارها "وسيلة فعالة لتنمية روح الثقة والتسامح بين الأفراد والجماعات، وخلق تواصل وتفاهم بين الشعوب، وعلى تفعيل القواسم المشتركة بينها، مما يؤدي إلى إزالة بؤر التوتر والعداوة التي غالبا ما يغذيها التقوقع والانعزال، والجهل بالآخر والأحكام المسبقة والسلبية عنه"(2).

نفهم من هذا أنّ الترجمة تساهم في تنمية المثاقفة وتغذيتها، ناهيك عن خلق حوار ثقافي مثمر، انطلاقا من احترام ثقافة "الآخر"، وتجاوز الأحكام المسبقة المليئة بنزعة الاحتقار والتعالي، احتقار ثقافة "الآخر"، والتباهي "بالأنا". فالترجمة بكل أسئلتها المتشعبة فعل معرفي هادف ونشاط علمي عميق يدعم التواصل الثقافي بين الشعوب، لأنّها "كانت ولا زالت جزءا لا يتجزأ من العملية التواصلية بين الثقافات الحية"(3). خاصة في هذا العصر الذي أصبح فيه فعل الترجمة أكثر ضرورة بحكم التطور في وسائل الاتصال، ممّا يتطلب بالضرورة حدّا أدنى من المعرفة بلغة "الآخر" وثقافته. من هنا تبدو الترجمة بمثابة "استراتيجية لتوليد الفوارق وإقحام الآخر في الذات، إنها ما يفتح الثقافة، ما يفتح اللغة على الخارج، ما يفتح النصوص على آفاق لم تكن لتتوقعها ولا تتوخاها"(4).

• خاتمة: الترجمة: تقاطع الهوية والكونية:

---

1. نقلا عن رشيد برهون، مرجع سيق ذكره، ص180.
2. للمزيد، أنظر: مسعود عمشوش، مرجع سيق ذكره.
3. الطيب بوتبقالت، ضمن، أسئلة الترجمة "مجلة الوحدة، العدد 61و62، أكتوبر ونوفمبر "عدد مزدوج" 1989م" ص ص80 – 81.
4. عبد السلام بن عبد العالي، الترجمة والمثاقفة، "مجلة الوحدة، العدد 61و62، أكتوبر ونوفمبر "عدد مزدوج" 1989م" ص7.

مجلة الدراسات المستقبلية
Journal of Future Studies
http: jfs@sustech.edu

ليست الترجمة علامة على تبعية ونقل وتجمد وموت كما يذهب إلى ذلك أنصار التقوقع والانكفاء على الذات، وإنما على انفتاح وتلاقح وحياة[1]. ولنا في التراث الإنساني شواهد مهمة لأشكال التلاقح والحوار الحضاري بين الأمم رغم التباينات العرقية والدينية واللغوية والمعرفية. حيث لعبت الترجمة داخل هذا العبور الثقافي والحضاري دورا طلائعيا في إغناء وإثراء هذه الحضارات بما تختزنه سابقاتها من خبرة وتقدم في مجالات وحقول معرفية وفكرية وثقافية مهمة.

لما كانت الترجمة تعبيرا عن تقاطع بين الهوية والكونية فإنّها قادرة على أن تتحوّل إلى لغة كونية موازية للغات الأخرى الناقلة والمنقولة عنها، فهي قاسم مشترك وطبيعة كونية سارية في كل الهويات بل هي ما يجعل الهويات تتعايش سلميا وجدليا في وحدة هي وحدة الهويات. كما أنّ الترجمة ليست سوى تعبير مكثف عن دينامية الحضارة الإنسانية في شموليتها، والحضارة الشمولية ليست غربية أو شرقية، ولا رأسمالية او اشتراكية ولا تراثية أو تحديثية، إنّها المحصلة العامة للجهد الانساني منظورا إليه بعين الحاضر الحريصة على الاحتفاظ بالموروث الثقافي القابل للحياة. وهي حصيلة جهد الأفراد وجهد الجماعات معا وهي التعبير المكثف للإنسان في جميع أبعاده، فحركة الترجمة عملية مستمرة لتغيير اللغة والإنسان والتراث والمجتمع في حوار حضاري غير منقطع، ممن يستوعب حضارات الآخرين يضف أعمارا إلى عمره وحضارات إلى حضارته[2]. لعل من البداهة القول بأنّ الشعوب غير متطابقة ثقافيا، ولكل شعب خصوصيته التي تمايزه عن غيره. لكن التمايز الثقافي ليس امتيازا، والاختلاف لا يلغي وجود أواصر إنسانية مشتركة.

تحاول العولمة اختزال الإنسانية في الكونية وذلك بعد أن همّشت الخصوصيات وجعلت مطلب تحصين الهوية يقترن بالتعصب واللاتسامح والتمركز على الذات. على هذا النحو يبدو أنّ إعادة صياغة مفهومي الكونية والهوية أمرا مقضيا من أجل إزالة التوتر الطارئ بينهما وتحقيق إنسانية الإنسان والخروج من متاهة العولمة المتوحشة ومن أسر الخصوصية المحنطة من أجل التأسيس لكونية بديلة تشرّع للعيش السويّ وتبقي على الاختلاف والتنوع وتنادي بالتثاقف والتخاصب بين الجماعات المتباينة والمتباعدة وهذا ما عبر عنه ادغار موران بالوحدة في التنوع والتنوع في الوحدة بقوله: " في جميع الأمور الإنسانية لا ينبغي على التنوع في حده الأقصى أن يحجب الوحدة ولا أن تحجب

---

1. المرجع السابق، ص8.
2. للمزيد، أنظر: مسعود عمشوش، مرجع سبق ذكره.

الوحدة الصماء التنوع"[1]. إنّ الهوية الإنسانية المنشودة هي تقاطع وتلاقح بين عدة هويات متنافرة وبالنظر إلى الغيرية على أنّها بنية تكوينية.

من الأمور المسلمة أنّه ليس بمقدور العولمة أن تخلق نظاما ثقافيا أو نسقا معرفيا واحدا تخضع له أو تدين به جميع الشعوب، فالهويات الثقافية هي أمنع الحصون والقلاع على الاختراق والذوبان الكلي، وإن كان التأثير عليها وتشويه وطمس بعض عناصرها أمرا واردا. يمكن للعولمة أن تخلق نظاما اقتصاديا أو إعلاميا أو سياسيا واحدا، لكن لا يمكنها أن تخلق "الإنسان النموذج الأخير"، لأنّها تصادم سنة الاختلاف الكونية في الحياة البشرية.

إذا كانت العولمة اتجاها نحو التماثل والمشاكلة فمعنى ذلك أنّها تتجه صوب إثبات اللغة البابلية الواحدة ومحاولة بعثها من جديد. والترجمة في ظل هذا الواقع تصبح تحريكا للجرح البابلي بما تعنيه من تعدد ومحاربة للأصل، فالترجمة ترادف التعدد إذا انطلقت من اعتبار تمايزي وهي بهذا المفهوم تحيد عن مسار خطاب العولمة الذي يتأسس على التوحيد. هل يعني ذلك أن تقف استراتيجية الترجمة في مسار مضاد تماما لمسار العولمة؟

لقد انقسم الدارسون إلى مناهض للترجمة يرى الثقافات كيانات منغلقة تتعالق فيها اللغات برؤية خاصة للكون لا يمكن نقلها، ومؤيد للترجمة على اعتبار وجود الترجمة ذاتها ووجود التنوع. إنّ الترجمة لا تكون خادمة للانفتاح ومرسخة له إلا في حالة الحياد أو التموقع بين الثقافات، أي أن يقف المترجم بين الثقافات وقوفا يعكس التساوي والقربى ويؤكد وجود القيم الإنسانية المشتركة تصبح معه مقولات الغزو الثقافي والحفاظ على الهوية ساذجة وشوفينية.

كما أنّ إقامة عولمة بديلة تفترض إنتاج ثقافة عالمية بديلة تسمح للخصوصية أن تجد مكانا لها في هذه المنظومة الكلية بشرط أن تكون هذه الخصوصية موجهة نحو المستقبل وغير مكتفية بما ترثه عن الماضي من أحكام ثابتة ومعايير مطلقة وحقائق نهائية. إن البحث عن الالتقاء الفاعل والوفاء للأصول هي شروط أساسية للتواصل مع الغيرية وانخراط الهوية في الكوني والمساهمة الإبداعية فيه وهو ما عبر عنه ريكور بقوله: " إنّ الثقافة الحيّة الوفيّة لأصولها وتلك التي تكون في نفس الوقت في حالة إبداع على صعيد الفنّ والأدب والفلسفة والعطاء الروحي هي وحدها القادرة على تحمّل ملاقاة الثقافات الأخرى[2].

---

1. Edgar Mourin, Humanité de l'humanité, Paris, Edition du Seuil, 2001, p.70.
2. فتحي عبد الفتاح، الثقافة والعولمة "القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 2003م" ص18.